* إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلىٰ أَكْبركُم *

الدكتور محمد عمر الحاجي

رسوم إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309

Email:almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

* إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلىٰ أَكْبركُم *

وَمِنْ الحِكَايَاتِ الرّائِعَةِ التّي تَدُورُ حَوْلَ مِحْوَرِ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ هَذِهِ الحِكَايَةُ ، وبَطَلتُها وَاحِدَةٌ مِنَ البَنَاتِ اللاّتِي تربَيْنَ عَلَىٰ مَنْهَجِ القُرْآنِ الكريمِ وسنَّةِ النَّبيِّ صلّىٰ الله عليه وسلَّمَ.

وفي الحِكَايَةِ دُرُوسٌ وعِبرٌ وعِظَاتٌ ، وهي مِنْ إِخْرَاجِ العَلاّمَةِ الأَبْشيهي رَحِمَه اللهُ تَعَالىٰ:

كَان حَاتِمُ رَجُلاً زَاهِداً وَرِعَاً (ت: ٧٣٢هـ) ، وكَانَ كَثير العِيَالِ ، لَهُ أَوْلادٌ ذكورٌ وأَوْلاَدٌ إِنَاثٌ. وكَانَ فَقِيرَ الحَالِ.

ذاتَ لَيْلَةٍ جَلَس مَعَ أَصْحَابِهِ يتحَّدثُ مَعَهُم. فتعَرَّضُوا لِذكْرِ الحَجِّ.

فَداخلَ الشوقُ قَلْبَهُ. فَقَامَ ودَخَلَ عَلى أَوْلادِهِ. ورَاحَ يتحدَّثُ مَعَهُم.

ثُمَّ قَالَ لَهُم: لو أَذِنْتُم لأبيكم أَنْ يَذْهَبَ إِلَىٰ بَيْتِ رِبّه في هَذَا العَامِ حَاجّاً ، ويَدْعُو لكم ، مَاذَا عليكم لوْ فَعَلْتُم؟

فقالَتْ زَوْجَتُهُ وأَوْلادُه: أَنْتَ عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ لا تَمْلِكُ شَيْئَاً ، ونَحْنُ عَلَىٰ مَا تَرَىٰ مِنَ الفَاقَةِ ، فكيفَ تُريدُ ذَلكَ ونَحْنُ بِهَذِهِ الحَالَةِ؟

وكَانَ لَهُ ابْنَةٌ صغيرَةٌ ، فَقَالَتْ: ماذَا عَلَيْكُم لو أَذِنْتُمْ لَهُ ، ولا يهمُّكُم ذَلِكَ ، دعُوه يَذْهَبُ حَيْثُ يَشَاءُ ، فإِنَّهُ جَالبٌ للرّزْقِ ولَيْسَ برزّاقٍ؟!

وَرَاحَتْ تذكّرُهُمْ بكَرَمِ الله وَعَطَاءاتِهِ ، فَقَالُوْا: صَدَقَتْ والله هَذِهِ الصَّغِيْرَةُ يا أَبَانا ، انْطَلِقْ حَيْثُ أَحْبَبْتَ.

فقامَ حَاتِمُ مِنْ وَقْتِهِ وسَاعَتِهِ ، وأحْرمَ بالحجِّ ، وَخَرَجَ مُسَافِرَاً.

وأَصْبَحَ أَهْلُ بَيْتِهِ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ جِيْرَانُهُمْ يُوَبِّخُونَهُمْ كَيْفَ أَذِنُوا لَهُ بالحَجِّ! وَتَأَسَّفَ عَلَىٰ فِرَاقِهِ أَصْحَابُهُ وَجِيْرانُه.

ولمّا طَالَ فِرَاقُ حَاتِمَ لأَوْلاَدِهِ ، ونَفَذَ الطَّعَامُ مِنْ بَيْتِهِمْ ، رَاحَ الأَوْلادُ يَلُوْمُوْنَ تِلْكَ الصَّغِيْرَةَ ، وَيَقُولُونَ: لو سَكَتِّ ما تكلَّمْنَا.

فَرَفَعَتِ الصَّغِيْرَةُ يَدَيْهَا ، ودَعَتْ رَبَّها قَائِلَةً: إِلٰهِيْ وَسَيِّدِيْ وَمَوْلاَيَ!! عَوَّدْتَ القَوْمَ بفضْلِكَ ، وأَنْتَ لا تُضَيّعُهُمْ فَلا تُخَيّبْهُمْ ، ولا تُخْجِلْنِيْ مَعَهُمْ.

وبَيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالَةِ ، إِذْ خَرَجَ أَمِيْرُ البَلْدَةِ إِلَىٰ الصَّيْدِ ، فانْقَطَعَ عَنْ عَسْكَرِهِ وَأَصْحَابِهِ ، فَحَصَلَ لَهُ عَطَشٌ شَدِيدٌ ، فَاخْتَارَ بَيْتَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ حَاتَمِ الأَصَمِّ ، فاسْتَسْقَىٰ مِنْهُ ـ أَي طَلَبَ مِنْهُمْ المَاءَ لِيَشْرَبَ ـ ولمَّا قَرَعَ بَابَ بَيْتِهِمْ ، قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: الأَميرُ ببابكم يَسْتَسْقِيكُمْ!!

فَرَفَعَتْ زَوْجَةُ حَاتِمَ رَأسَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ ، وَقَالَتْ:

إلٰهي وَسَيِّدِيْ سُبْحَانَكَ!! البارِحَةَ بِتْنا جِيَاعاً ، واليَوْمَ يَقِفُ الأَميرُ عَلَىٰ بَابِنَا يَسْتَسْقِينَا!؟

ثُمَّ إِنَّها أَخَذَتْ كُوزاً جَدِيْداً وَمَلأتْهُ مَاءً ، وقالَتْ للأمِيرِ: أُعْذُرونا.

وأَخَذَ الأميرُ الكُوَز ـ أَيْ: الكُوبَ ـ وَشَرِبَ مِنهُ ، فاسْتَطابَ الشُّربَ مِنْ ذلكَ الماءَ ، فقالَ: هذِهِ الدَّارُ لأَمِيرٍ؟

فقالوا: لا واللهِ ، بَلْ لعبدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصّالِحِيْن ، يُعْرفُ بِحَاتَم الأَصَمِّ.

وَعِنْدَئذٍ لَحِقَ بالأَمِيْرِ أَتْبَاعُهُ وعَسْكَرُهُ.

فَقالَ الأميرُ: لَقَد سَمِعْتُ بِحَاتَمِ الأَصَمِّ ، فَأَيْنَ هُوَ الآنَ؟

فقالَ الوزيرُ: يا سَيِّدي! لقَد سَمِعْتُ أَنّه البَارِحَةَ أَحْرَمَ بالحجِّ ، وسَافَر ولَمْ يُخَلِّفْ لِعِيالِهِ شَيْئَاً ، وأُخْبِرتُ أَنّهم البَارِحَةَ باتُوا جِيَاعاً!!

فَقالَ الأَميرُ: وَنَحْنُ أَيْضاً قَد ثقَّلْنا عليْهِم اليَوْمَ ، وليْسَ مِنَ المُروْءَةِ أَنْ يُثقَّلَ عَلَىٰ مِثْلِهِمْ.

ثُمَّ حَلَّ الأَمِيْرُ مِنْطَقَتَه ـ وهو ما يُشَدُّ بِهِ الوَسَطَ ويوضَعُ بِهِ النُّقود ـ مِنْ وَسَطِهِ ورَمَىٰ بِهَا في الدّارِ ، ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ: مَنْ أَحَبَّني فلْيُلْقِ مِنْطَقَتَهُ ، فحلَّ جَميعُ أَصْحَابِهِ مَناطِقَهُمْ ، ورَمَوا بها إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا.

فقالَ الوزيرُ: السّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ ، لآتِيَنّكُمُ السَّاعَةَ بِثَمَنِ هذِهِ المَناطِقِ. وبَعْدَ قَليلٍ ، عَادَ الوزيْرُ إليْهِمْ ، ودَفَعَ إليهم مَالاً جَزِيْلاً ، واسترَدّ المَناطِقَ ، ثُمَّ عَادَ ولمّا رأتِ الصَّبيّةُ الصَّغِيْرةُ ذَلِكَ بَكَتْ بُكاءً شَدِيداً.

فَقَالَ لَهَا إِخْوَتُها: ما هَذَا البُكَاءُ الآن؟ إِنَّما يَجِبُ أَنْ تَفْرَحِيْ لأَنَّ الله قَدْ وَسَّعَ عَلَيْنَا.

فقالَتْ: والله إِنَّما بُكَائي كَيْفَ بِتْنا البَارِحَةَ جِيَاعاً ، فنَظَرَ إِلَيْنا مَخْلُوقٌ نَظْرَةً وَاحِدة ، فأَغْنَانَا بَعْدَ فَقْرِنا ، فَكَيْفَ لو نَظَرَ إِلَيْنَا الخَالِقُ الكَرِيمُ نظرةً واحِدَةً؟!

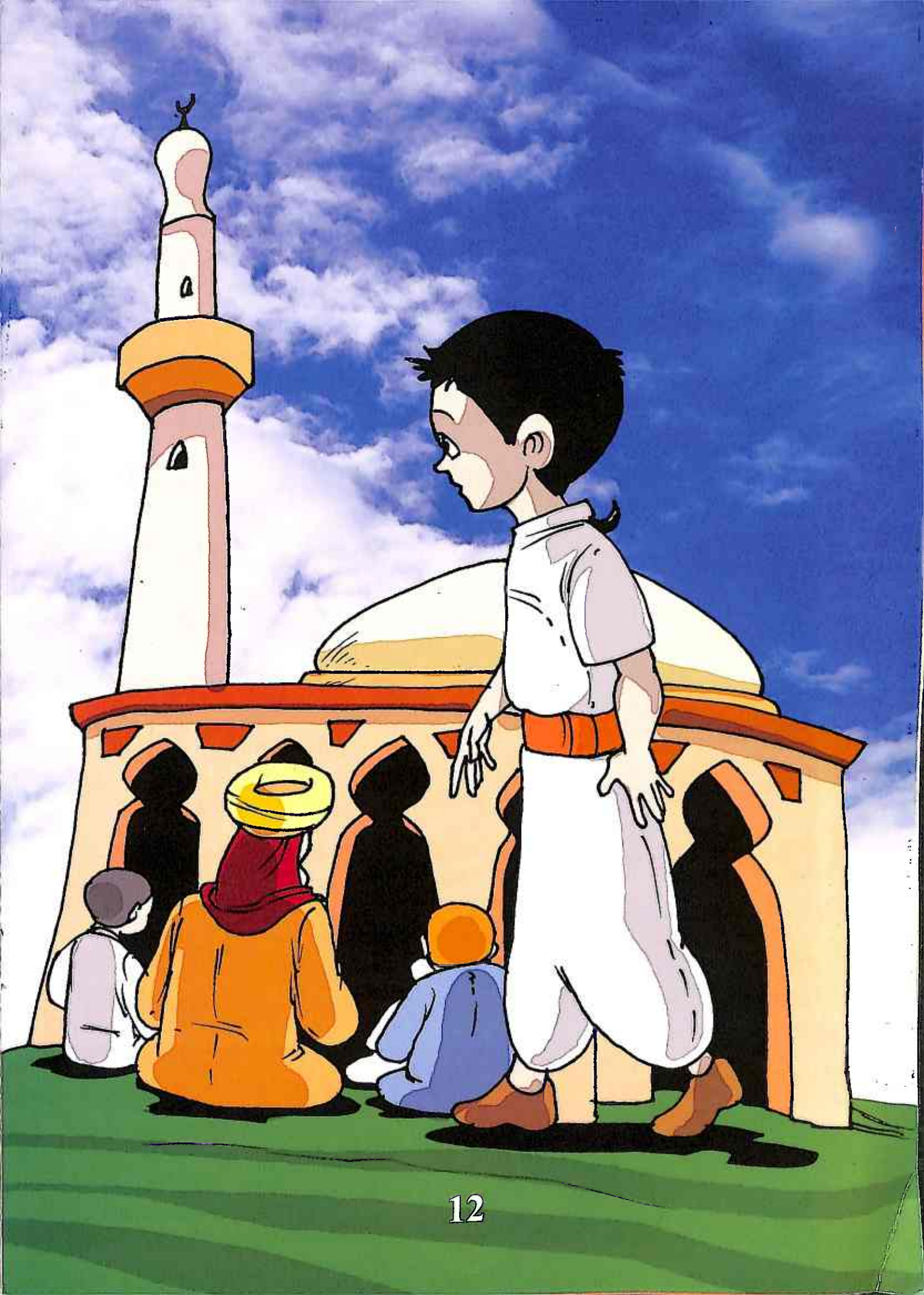

ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ أُنْظُر إِلَى أَبِيْنَا ودبِّرْهُ بأَحْسَنِ التَّدْبيرِ.

.... هَذَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وأَمَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ حَاتِم أبِيْهِمْ ، فإِنّهُ لَمّا خَرَجَ مُحْرِمَاً وَلَحِقَ بالقَوْمِ ، توجّعَ أَميرُ الرّكبِ ، فطلَبُوا لَهُ طَبِيْبَاً ، فَلَمْ يَجِدُوا ، فَقِيلَ: هَلْ مِنْ عبدٍ صَالِحٍ يدْعُو لَهُ؟

فدُلَّ عَلىٰ حَاتَمِ الأَصَمِّ ، ولمّا دَخَلَ عليه وَكلَّمَهُ ، دَعَا لَهُ ، وشَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ الشّفاءَ للأميرِ عَلى يَدِ الَعْبدِ الصّالِحِ.

فَأَمَرَ الأَميرُ لَهُ بِمَا يَرْكَبُ ومَا يَأْكُلُ وَمَا يَشْرَبُ ، فَنَامَ تِلْكَ اللّيْلَةَ مُفكّرَاً في أَمْرِ عِيَالِهِ.

فقيلَ لَهُ في مَنَامِهِ: يا حَاتَمُ!! مَنْ أَصْلَحَ مُعَامَلتهُ مَعَنا ، أَصْلَحْنا مُعامَلَتَنا مَعَهُ. ثُمَّ أُخْبِرَ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ عِيَالِهِ ، فَأَكْثَرَ الثَّنَاءَ عَلَى اللهِ تعالىٰ.

ولمَّا قَضَىٰ حَجَّهُ ورَجَعَ ، تلقّتهُ أَوْلاَدَه ، فَعَانَقَهُم ، ثُمَّ عَانَقَ الصَّغيرةَ وبَكَىٰ.

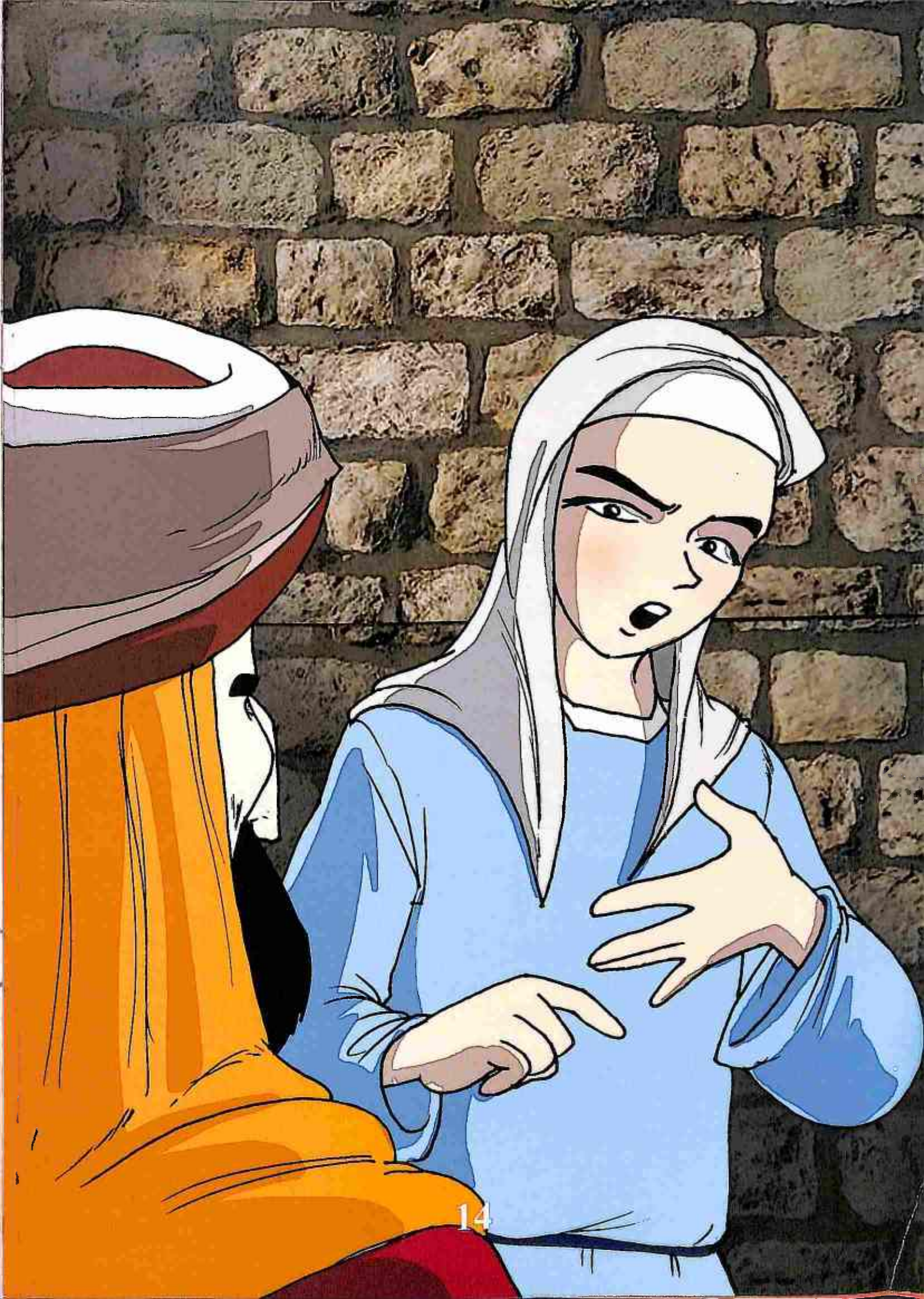

فَسُئلَ عَن سِرِّ بُكائِهِ ، فَقَالَ: صِغَارُ قومٍ كِبارُ قَوْمٍ آخَرِيْنَ ، إِنّ الله لا يَنْظُرُ إِلىٰ أَكْبَرِكُمْ ، ولَكنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ أَعْرَفِكمُ بِهِ ، فَعَلَيْكُمْ بِمَعْرفَتِهِ والاتّكالِ عَلَيْهِ ، فإِنَّهُ مَنْ تَوَكَلَ عَلَى اللهِ فهو حَسْبُهُ.

* ما صَنَعْتَ بالدَّمِ يا عَبْدَ الله؟! *

وهَذِهِ وَاحِدَةٌ مِنَ القَصَصِ التّي تَدُوْرُ حَوْلَ فكرةٍ هِيَ: كَيْفَ كَانَ الأَطْفَالُ يَتَعامَلُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ الله عليه وسلَّم ؟ وَكَيْفَ كَانَ يَعِيْشُ مَعَهُمْ؟.

وفِيْها مِنَ الأَدِلَّةِ النَّاصِعَةِ عَلَىٰ مَدَىٰ حُبِّ الصَّحابَةِ الأَكَارِمِ للنَّبِيِّ صَلَواتُ اللهِ عَلَيهِ ، وفِيْها مِنَ الفَوَائِدِ والمَواعِظِ والعِبَرِ الشَّيءُ الكَثيرُ:

ذاتَ يَومٍ احْتَجَمَ رسول الله ﷺ ـ مِنَ الحِجَامَة: أَخْرجَ بَعْضَ الدَّمِ مِنْ جَسَدِهِ ـ ، وكَانَ عِنْدَهُ جَماعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ.

فَقَالَ النَّبيُ صَلَّىٰ الله عليه وسلَّمَ لعبْدِ اللهِ بنِ

الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يَا عَبْدَ اللهِ!! اذهَبْ بِهذا الدَّمِ فَوَارِهِ - أَيْ: أَخْفِهِ واسْتُرْهُ في الأَرْضِ - حَيْثُ لا يَرَاْهُ أَحَدٌ».

فَتوارَىٰ عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ عَنِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، وشَرِبَ الدَّمَ!! ولمّا رَجَعَ ، سَألَهُ النَّبيُ: «يا عَبْدَ اللهِ!! ما صَنَعْتَ بِهِ؟».

قَالَ: جَعَلْتُه يا رَسُولَ اللهِ في أَخْفَى مَكَانٍ ظَنَنْتُهُ خَافِياً عَنِ النّاسِ.

فَقَالَ: «شربْتَهُ؟».

قَالَ: نَعَمْ يا رَسُولَ اللهِ.

فقالَ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسَلَّم: «وَلِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟».

قَالَ: رَجَاءَ أَنْ لا تَمَسَّ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ جَسَدِيْ!!

- وكانَ عَبْدُ اللهِ صَغِيْراً ، وذَلِكَ لأَنَّهُ وُلدَ بَعْدَ مَقْدَمِ النَّبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليه وسَلَّمَ المدينَةَ المنورَةَ...

❋ ❋ ❋